# ٨- عصر الموحدين

## (٥٤١ ـ ٦٦٨هـ/ ١١٤٦ - ١٢٦٩م)

مر الأندلس ـ بعد اضمحلال أمر المرابطين ـ بفترة طوائف ثانية، هى صورة مضطربة من فترة الطوائف الأولى، ثم حل الموحِّدون محلَّهم فى الأندلس، بعد أن كان الأمر قد استتبَّ لهم فى مراكش، وقد طال عمر سيادتهم على الأندلس حتى زاد على القرن، فلم تتزعزع دعائمها إلا بعد هزيمة «العُقاب» (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م). وقد تمتع الأندلس خلال العصر الموحِّدى بالأمان والهدوء، ولعل الإسلام فى الغرب لم يُشبه بأَبَويَّةَ روما فى عصر من العصور كما شابهها فى ذلك الحين، إذ اطمأنت ولايات الدولة الموحِّدية فى ظل نظام جديد قام على رعايته خلفاء الموحِّدين و«سادتهم»[١] فى حكمة وتعقُّل. وقامت منشآت لا تضارع، كمنارة «الخيرالدا»[٢] ـ هادية إشبيلية ورمزها ـ يطغى فيها الجمال على القوة، وترتسم حينًا قصيرًا على مبانيها الفسيحة ذات المقاييس الرحبة وحداتٌ زخرفية دقيقة رائعة ستعود إلى الظهور فى مشاهد غرناطة على صورة لم تُسبق قبلُ ولم تُلحق بعدُ أبدًا.

بيد أننا إذا أطلنا النظر لاحظنا أن الإسلام الأندلسى كان يأكل آخرَ زادِه، وإننا

---

(١) جمع سيد، وهو اللقب الرسمى لأمراء الموحدين.

(٢) أطلق هذا الاسم على المنارة بعد استيلاء النصارى على إشبيلية، وكان الموحدون قد جعلوا فى رأس المنارة تفافيح عظيمة مموهة بالذهب، فلما استولى النصارى على البلد تلفت الساريات التى تحمل التفافيح، وعجز العمال عن إعادتها إلى ما كانت عليه، فأزالوها وجعلوا مكانها تمثالاً للعقيدة المقدسة، له شارة تعيِّن اتجاه الريح، ولما كان مشير هذه الآلة يدور فقد سميت المنارة «بالدوارة» وهى الترجمة العربية للفظ La Giralda الإسبانى.

لنتأمل أحوال الأندلس فلا نكاد نجد للمشرق إلا ظلاً باهتًا من أثر بعيد، ونرى بوضوح أن الأندلس الإسلامى كان يعيش إذ ذاك على ماضيه وحده، ويقيم أوده بأمداد من الأفارقة الذين تطفَّلوا عليه ليقبسوا من نوره ما عساه يُعينهم على تمدين الصحارى، ونراه يفقد ما كان يتصف به من تساهل لطيف جعل منه ـ أيامَ سعوده ـ مجمع الأجناس كلها: انتهى أوان سياسة التسامح وأُخرج المستعربون من ديارهم، وكانت نتيجة ذلك أنْ دَبَّ فى كيان ملوك النصارى روح جديد، وكانت قواهم تزداد يوماً بعد يوم وإحساسهم بالمصير المقدَّر للوطن الإسبانى يتجلى أمام أعينهم شيئًا فشيئًا، فلما استطاعوا أن يقتحموا حدود ما بقى للإسلام من أرضين لم يغادروا وراءهم مراكز إسلامية عامرة بأعلام الحضارة كما فعلوا عندما دخلوا طليطلة فأبقوها على حالها، وإنما أصبحوا يأتون على كل ما يجدونه قائمًا من معالم العمران فيما يقع بأيديهم من العواصم، وسيخلِّفون البلاد بهذا من ورائهم بلاقع خالية، لتُعمر من جديد بناس جدد يقبلون من الشمال ويقيمون فى إشبيلية وقرطبة كنائس قوطية بين ديار المسلمين. وقد كان من نتائج فقدان الأندلس الإسلامى لسيادته أن نظر الأفارقة إليه بعين الازدراء، وحاولوا التقليل من شأنه، ونهض أبو الوليد الشقندى (المتوفى عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) يذود عن حياض الإسلام الأندلسى، فكتب رسالته الذائعة الصيت «فى فضل الأندلس»، وقد نقلتُها إلى الإسبانية.

وفى خلال ذلك كله وصلت العلوم فى الأندلس الإسلامى إلى ذروتها العليا، وظهر من أعلامها رجال مثل أبى بكر بن طفيل وأبى الوليد بن رشد وأبى العُلا بن زهر وابن البيطار، واستمر كذلك إقبال الشعراء على صوغ القريض وحماس الناس لشعرهم، وعندما جاز عبد المؤمن بن على (٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ / ١١٢٩ ـ ١١٦٢م) إلى الأندلس وحلَّ بجبل طارق سمَّاه «جبل الفتح»، واستقبله أهل الأندلس عند سفحه استقبالاً حافلاً «لم يجتمع لملك قبله، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك،

وإنما كانوا يستأذنون، فيُؤذَن لهم. وكان على بابه طائفة منهم، أكثرهم مُجيدون»[1]، وكان لحفيده يعقوب المنصور (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ / ١١٨٤- ١١٩٨م) يوم حافل آخر مثل يوم جده، إذ قعد يستقبل الناس عند «حصن الفرج Aznal-farache» وقد بلغ من كثرة الشعراء فى ذلك الحين أن المنصور لما قفل من غزوة «الأراكة» (= الأرك) المشهورة وكانت يوم الأربعاء الموافق للتاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، «فلم يتمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين والثلاثة المختارة»[2].

وقد حفلت دواوين إنشاء الموحِّدين فى الأندلس ومراكش بالموهوبين من كتَّاب الأندلسيين وشعرائهم من أمثال أبى جعفر بن سعيد (توفى ٥٥٩هـ / ١١٦٣م) وأبى بكر بن زهر (٥٠٧ ـ ٥٩٦هـ / ١١١٣ - ١١٩٩م) وميمون بن الخبازة ويحيى بن مجبر (توفى ٥٨٧هـ / ١١٩١م) وغيرهم كثيرين. حتى بنو غانية، الذين انتصبوا دهرًا يدافعون دفاعاً مجيدًا عن راية المرابطين فى المغرب والجزائر الشرقية، كان لهم شاعر أندلسى مُجيد هو عبد البر بن فرسان، وحفلت نواحى الدولة برؤساء أو شعراء ممن أجادوا قول الشعر وبرعوا فيه. وقد رفع عَلَمَ الطريقة الشعرية المشرقية أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى (توفى ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) وأبو بحر صفوان بن إدريس الحميرى صاحب «زاد المسافر» وهو مجموعٌ من مختار القريض. وتألقت فى سماء غرناطة ثُرَيَّا باهرة من الشواعر نذكر منهنَّ حفصة الركونية، التى أعادت إلى الأذهان ذكرى الرميكية والمعتمد بما كان بينها وبين أبى جعفر بن سعيد من هوى موصول. بيد أن إشبيلية حازت قصب السبق بين مدائن الأندلس فى ذلك المضمار، وكان شعراؤها يلقون فى مجالاتها بين الحين والحين من يلمُّ بها من شعراء غيرها من البلاد والنواحى. ونذكر من بين شعرائها أبا جعفر أحمد الكسَّاد، وأبا الحسين محمد بن صفر، وأبا عبد الله محمد بن إدريس المعروف بمرج الكُحل (توفى ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م)، وأبا الحجاج المنصفى، وأبا العباس أحمد بن سيد الملقَّب باللص، والأصم المروانى.

---

(١) عبد الواحد المراكشى: «المعجب»، (القاهرة ١٩٥٠م)، ص ٢١٣.

(٢) المقرى: «نفح الطيب»، جـ٢، ص ٥٤٠.

وكان يتردد فى جنبات أزقة إشبيلية مجون زجَّاليها وضحكاتهم، وكانوا يقطعون الليل فى قوارب جميلة تضيئها الشموع تمر بهم بين ضفاف طَرِيانَة أو تحت «برج الذهب» يتسامرون أو يتناشدون الأشعار ويستمتعون بأنغام موسيقية عذبة تعزفها نساء جميلات تسترهنَّ عن العيون المظلات. وتواترت على شفاه الإشبيليين إذ ذاك أبياتُ أشهر شعراء ذلك العصر، أو على الأقل أبعدهم صيتًا فى العالم الإسلامى، وهو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى (المتوفى عام ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م). «وقد سئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظمه فقال: لأنه اجتمع فيه ذُلاَّن: ذل العشق وذل اليهودية». ولما غرق قال فيه بعض الأكابر: «عاد الدرُّ إلى وطنه»[(١)]. ومن نظمه قوله:

وأَلْمَى بِقَلْبِى منهُ جَمْرٌ مُؤَجَّجٌ ... تَراهُ عَلَى خَدَّيه يَنْدَى ويَبْرُدُ
يُسايلنى: مِنْ أىِّ دِينٍ؟ مُداعبًا ... وشَمْلُ اعتقادِى فى هَواهُ مُبَدَّدُ
فُؤادِى حَنِيفىٌّ، ولكنَّ مُقْلَتِى ... مَجُوسِيَّةٌ، مِنْ خَدِّهِ النارَ تعبدُ

ومن الدلائل الواضحة على اضمحلال الأندلس مغادرة الكثيرين من أعلامه إياه إلى غير رجعة، فلم يعد الأندلسيون يخرجون إلى المشرق لطلب العلم ثم يعودون محملين بذخائر علومه كما كان الحال قبلاً، وإنما أصبحوا يخرجون من الأندلس بزاد حافل من المعارف ينشرونها فى أقطار نائية؛ ورجال مثل الحسين بن جبير (توفى بعد ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، ومحمد بن أحمد بن الصابونى، وابن خروف (توفى ٦٠٢هـ /١٢٠٥م)، سينقلون دُرر الشعر الأندلسى إلى آفاق بعيدة. أما الشُّشْترى (توفى ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، ومحيى الدين بن عربى بصفة خاصة (٥٦١ ـ ٦٣٨هـ / ١١٦٥ ـ ١٢٤٠م)، فسينقلان إلى مدائن المشرق ما كان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الإلهى وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة، وسيقضيان أيامهما فى مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش. وقد سبق «ابنُ عربى» دانتى إلى آرائه وتخيلاته، وأنفق آسين فى دراسته جهدًا

---

(١) المقرى: «نفح الطيب»، جـ٢، ص ٣٥٣. ولم يورد غومس الأبيات التى أوردتها فى النص فأتيت بها استكمالاً للكلام، وهى فى نفس الموضع من «نفح الطيب».

عظيماً. وسيكون من نتائج زحف النصارى على شرق الأندلس واستيلائهم على قواعده هجرة نفر من أعلامه إلى تونس واستقرارهم فيها، فتنشأ عن ذلك هالة من أعلام أهل الأدب تحيط بالبلاط الحفصى، نجد من بين نجومها رجالاً مثل حازم القرطاجنى وابن أبى الحصين وأبى الحجاج البياسى (٥٧٣ ـ ٦٥٣هـ / ١١٧٧ ـ ١٢٥٥م)، وغيرهم كثيرين.

وقد وافى القدر المحتوم فى تونس علمًا من أنبغ علماء الثقافة الأندلسية، وهو أبو عبد الله بن الأبار القضاعى (٥٩٥ ـ ٦٥٩هـ / ١١٩٨ ـ ١٢٦٠م) الذى لفظ أنفاسه تحت أقدام عبيد أبى زكريا الحفصى. كان ابن الأبار شاعراً كاتبًا معنيًا بجمع الأخبار ومختارات الكلام وتدوينها، ونستشعر فى كلامه وحياته النبض الأخير لِعرْق العروبة القديم فى الأندلس. وفى بلاط تونس كذلك عاش أبو الحسن علىّ بن سعيد المغربى (توفى ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م أو ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) ردحاً من الزمن، ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر، وقد سجل لنا فى كتابه «المُغرب» وغيره من المؤلفات الجهود الأدبية لثلاثة أجيال متعاقبة من أسرة أندلسية واحدة. وقد كان ابن الأبار وابن سعيد مسك الختام لهذا العصر الحافل بالشعر والعلوم فى تاريخ الثقافة الأندلسية.

* * *